رأى عبقري في

حمـــاد الراوية

للأستاذ السيد يعقوب بكر

٤ — رواية حماد

(ا) اشتهاره بكثرة الحفظ والرواية

اشتهر حماد بكثرة حفظه وروايته ، حتى لقد سُمِّي حمادا الراوية . ونحن لا نظن أنه سُمِّي هكذا تمييزاً له من معاصريه : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان ، فقد كان يمكن أن يُسمَّى حماد ابن ميسرة[1] . وفي الأغاني (ج ٥ ص ١٦٥) أن الهيثم بن عدي قال : ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد . وجاء في خزانة الأدب (ج ١ ص ١٢٩) وفي غيرها من كتب الطبقات أنه كان من أعلم الناس بكلام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها .

وترد في كثرة حفظه أخبار كثيرة . ففي الأغاني (مرة في ص ١٦٤ — ١٦٥ ، ومرة أخرى في ص ١٧٤) ، وفي معجم الأدباء (ج ٤ ص ١٣٧) ، وفي وفيات الأعيان (ص ٢٤٠ ط باريس) ، وفي خزانة الأدب (ص ١٢٩) ، وفي تحفة المجالس ونزهة المجالس للسيوطي (ص ٢٠٢)[2] ، أن الوليد بن يزيد قال لحماد : بم استحققت هذا اللقب ، فقيل لك حماد الراوية[3] ؟ قال : لأني أروي لكل شاعر يعرفه أمير المؤمنين أو سمع به ، ثم أروي لأكثر منهم ممن تشرف بأنك لا تعرفهم ولا سمعت بهم ، ثم لا أُنشِد شعراً لقديم أو محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث . قال : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكني أنشدك على أي حرف شئت من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية . قال : سأمتحنك . وأمره الوليد بالإنشاد ، فأنشده حتى ضجر الوليد ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه ؛ فأنشده ألفي قصيدة وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمائة ألف درهم .

وفي الأغاني (ص ١٦٤) أن مروان بن أبي حفصة الشاعر قال : دخلت أنا وطُريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مُطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد وهو في فُرُش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد ابن يزيد على بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ؛ فقلت : من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية .

ويقول أبو الفرج (ص ١٧٣) : « قال حماد الراوية : أرسل إليَّ أمير الكوفة فقال لي : قد أتانا كتاب أمير المؤمنين الوليد ابن يزيد يأمرني بحملك . فحملت ، فقدمت عليه وهو في الصيد ، فلما رجع أذن لي ، فدخلت عليه وهو في بيت منجد بالأرمني أرضه وحيطانه . فقال لي : أنت حماد الراوية ؟ فقلت له : إن الناس ليقولون ذلك . قال . فما بلغ من روايتك ؟ قلت : أروي سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها : بانت سعاد . فقال : إنها لرواية » . وواضح أن هذه القصة وقعت قبل تلك القصة التي كانت لحماد مع الوليد أيضاً ، والتي تقدم ذكرها . وقد قدَّمنا تلك القصة على هذه لاشتهارها وورودها في معظم كتب الطبقات .

فقد كان حماد إذن مشهوراً بكثرة الحفظ والرواية . وهي شهرة هو جدير بها وحقيق . فليس عهدنا بالمعاصرين أن يتزيدوا على المرء بالفضل والسبق ، إنما عهدنا بهم أن يحطوا من قدره ويهوّنوا من أمره .

(ب) جمعه المعلقات السبع[1] وروايته معظم شعر امرئ القيس

في نزهة الألباء للانباري (ص ٤٣) وفي معجم الأدباء

(١) في الأغاني (ج ١٦ ص ١٤٨ — ١٤٩) وفي أمالي المرتضى (ج ١ ص ٩٠) ، قول الجاحظ يرد فيه ذكر حماد بن أبي ليلى الراوية . فاطلاق الجاحظ هنا لفظ الراوية على حماد لا يراد به تمييزه من حماد عجرد وحماد بن الزبرقان ، ولكن يراد به تمييزه بكثرة الرواية .

(٢) وكذلك ورد هذا الخبر مختصراً في بلوغ الأرب للآلوسي (ج ١ ص ٤٠) .

(٣) في هذا السؤال دليل على ما قلناه في سند لفظ الراوية .

(١) أي معلقات امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعنترة ابن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة .

(ص ١٤٠) ، وفى وفيات الأعيان (ص ٣٤٠) أن أبا جعفر أحمد ابن محمد النحاس ذكر أن السبع الطوال من جمع حماد الراوية ؛ وفى نزهة الألباء ومعجم الأدباء وحدها أنه لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة .

أما أن العرب الجاهليين لم يختاروا المعلقات ولم يفضلوها على غيرها من الشعر ، فهذا ما لا نستطيع الأخذ به . ذلك لأننا لا نرى مانعاً من ذلك . فالعرب الجاهليون قوم شغلوا بالشعر ، فقالوه ، ورووه ، وأقاموا الأسواق لإنشاده ونقده . وقوم هذا شغلهم بالشعر لا يصعب عليهم تفضيل بعضه على بعضه واختيار بعضه دون سائره .

فالمعلقات إذن قد تكون من اختيار العرب القدماء . وهو ما لا يراه ابن النحاس النحوىّ المصرىّ . ويؤيدنا فى رأينا هذا ما يقوله ابن النحاس نفسه من أن حمادا الراوية ، لما رأى قلة من يُعنون بالشعر ، جمع هذه القصائد السبع ، وحثّ الناس على درسها ، وقال لهم : هذه هى المشهورات . ولفظ المشهورات هنا هو بيت القصيد . فهو يدل على أن القصائد السبع كانت ، قبل أن يجمعها حماد ، مفضلة على غيرها ، وهو فضل يرجع فى أغلب الظن إلى اختيار العرب الجاهليين إياها .

وأما أن العرب الجاهليين لم يعلقوا القصائد السبع على الكعبة ، فهو ما نوافق ابن النحاس عليه . فقد بينا فى الفصل السابق من هذا البحث كيف أن الكتابة العربية قبل الإسلام لم تكن صالحة لأن تدون بها الأشعار . ونقول هنا (مستندين إلى ما يقوله المرحوم الأستاذ طه أحمد ابراهيم فى كتابه تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٣) إن ابن عبد ربه ، وهو أندلسى من رجال أوائل القرن الرابع الهجرى ، أول من ذكر تلك القصة ، قصة تعليق القصائد السبع على الكعبة ؛ وإن إغفال المشارقة قبله هذه القصة كابن سلام وابن قتيبة والجاحظ والمبرد ، وكتبهم من أمهات كتب الأدب ، تجريح لها وإغراء برفضها .

فخلاصة رأينا هى أن المعلقات السبع من اختيار العرب القدماء فى أغلب الظن ، وأن حماداً هو الذى جمعها بعضها إلى بعض وجعل منها جملة معروفة ، وأن تسميتها بالمعلقات لا تعنى أنها علقت على الكعبة أو فى داخل الكعبة .

فاذا سئلنا عن معنى كلمة المعلقات ، أجبنا أنها تدل على الجودة والنفاسة ، وأنها هنا على المجاز لا على الحقيقة . ومثلها فى هذا كلمة السموط التى تطلق أيضا على السبع الطوال . وهذا الإطلاق المجازى فى غير حاجة إلى الشرح . وقد تكون كلتا المعلقات والسموط من إطلاق العرب القدماء ؛ كما قد تكونان من إطلاق حماد ، كما يرى نولدكه Noeldehe فى كتابه Beiträge zur Kenntniss der Poesie der alten Araber (ص ٢٢) . ويرى هيار (ص ٩) وتشارلز ليال فى كتابه : Translations of Ancient Arabian Poetry (المقدمة ، ص ٤٥) أن كلمة المعلقات من إطلاق حماد . ثم إن للسبع الطوال اسماً آخر هو المذهبات ، قد يكون من إطلاق القدماء ؛ وقد يكون من إطلاق حماد . وواضح أن القصة التى يذكرها ابن عبد ربه من أن العرب كتبوا السبع الطوال بماء الذهب فى نسيج من صنع أقباط مصر وعلقوها بأستار الكعبة ، واضح أن هذه القصة إنما نشأت من تسمية هذه السبع الطوال بالمعلقات أو المذهبات ، ثم أخذ هذه التسمية على وجهها الحقيقى لا المجازى .

والآن ، وقد بسطنا رأينا فى المعلقات : اختيارها ، وجمعها ، وتسميتها ، نعود فنناقش مقالة بعض المستشرقين فى اختيارها ، ونبين ما تنطوى عليه من زيف وخطأ .

يقول نولدكه فى بحث له عن المعلقات (الموسوعة البريطانية ، المجلد ١٥) : « لم يكن من اليسير للعرب القدماء إطلاقا أن يختاروا هذه القصائد السبع . وأكبر الظن أننا مدينون بهذا الإختيار لأحد العلماء المتأخرين ... وقد كان حماد (الذى امتدت حياته فى الأرباع الثلاثة الأولى من القرن الثامن الميلادى) المتفرد فى عصره بحفظ أغلب الشعر العربى . وكان عمله رواية الشعر . فاختيار الشعر مما يصح من راوية مثله من كل الوجوه[1] . ثم إن هناك حقيقة أخرى يبدو أنها تؤيد جمع حماد المعلقات . فقد كان فارسى الأصل ، ولكنه كان مولى لقبيلة بكر بن وائل العربية . ونحن نظن أن هذا حدا بحماد إلى ألا يقتصر على ضم قصيدة لطرفة الشاعر المشهور ، فضم قصيدة بكرى آخر ، هو الحارث ، الذى كان زعيما شهيرا ، وإن لم يكن شاعرا مبرزا ؛ وإنما ضم قصيدته لأنها تصلح لمعارضة قصيدة أخرى فى المجموعة ؛ هى تلك الأبيات المشهورة التى قالها معاصره عمرو ، زعيم قبيلة تغلب ، منافسة أختها بكر ... » .

(يتبع)

السيد يعقوب بكر

(١) أورد نولدكه هذا الرأى أيضا فى كتابه السابق الذكر (ص ٢٠)